" المـــوت اختيـــارا" وأدهـــى...!

www.arabpsynet.com/Documents/Doc.SammarraiDeathChoice.pdf

د. صـــــادق السامرائـــــي *
أمريكـــــا - العـــراق
alrahwan@yahoo.com

لا توجد إحصاءات دقيقة في مجتمعاتنا عن الإنتحار، بل أن الدراسات قليلة أو نادرة، وربما ممنوعة بسبب النفي أو النكران أو إعتبارها تحديا على النظام السياسي القائم

تعودنا التصديق بأن الدين يحمي من الإنتحار أو يمنعه، وأن نسبته في المجتمعات الدينية أقل

أمضيت طفولتي وصباي في مدينة دينية تصدح في أجوائها المآذن على مدار الساعات , وتبدو وكأنها في إحتفاليات شعائرية متواصلة مع الأيام , وهذه المدينة كانت عاصمة الدولة العباسية لأكثر من خمسة عقود , وبنيت فيها أجمل القصور التي ربما تفوقت على قصور الأندلس بجمالها , ولهذا سميت بأجمل الأسماء , وأنشد في قصورها وأروقتها وساحاتها أبو تمام والبحتري وإبن المعتز. وهي أكبر مدينة أثرية معاصرة وفيها مراقد للأئمة الأطهار.

أقول إنها مدينة دينية , وفيها سمعت بكلمة "إنتحار" ورأيت حالات إنتحار , بقيت تتردد في ذاكرتي وتثير تساؤلاتي عن علاقة الدين بالإنتحار؟!

ومن تلك الحالات:

أحـــــــــــرق نفســـــــــــه

ذات ظهيرة تموزية عراقية ملتهبة , حيث يمضي الناس قيلولتهم الصيفية المعتادة , وكان اليوم يغلي على موقد الشمس الساطعة , سمعنا صراخا ونداءات نجدة في شارعنا , فهرعنا إلى المكان وهو بيت مقابل بيتنا , وتجمع الناس وجاءت سيارة , ولازلت صبيا لا أعرف ما يجري , وفجأة خرج إبن جارنا عاريا وقد نزع جلده تماما وهو يصرخ مشيرا إلى أبيه "أنت السبب , أنت السبب" , وضعوه في السيارة التي أسرعت به إلى المستشفى , وأخذت أسمع الناس من حولي تقول " مسكين أحرق نفسه , مسكين , لا حول ولا قوة إلا بالله".

وذلك الشاب كان في العشرين من عمره وفي المرحلة الثانية من دراسته الجامعية , وما رأيت فيه إلا أنه من المثقفين ويحب النقاشات الثقافية , لكنه كان منعزلا وبعيدا عن الآخرين في معظم الأوقات , ويبدو عليه التوتر وقسوة الملامح , وعلامات التألّم. وهو من عائلة ذكية ووجيهة وذات سمعة طيبة ويشهد لها بالقدرات الإبداعية.

وتلك كانت أول مرة أرى فيها جسما بشريا بلا جلد , فقد سكب النفط على بدنه وأولع النار به , فأصيب بحروق من الدرجة الثالثة شملت جميع جسمه , فمات على أثرها بعد بضعة أيام.

من المجتمعات غير الدينية تعودنا التصديق بأن الدين يحمي من الإنتحار أو يمنعه، وأن نسبته في المجتمعات الدينية أقل من المجتمعات غير الدينية

أطلـــــق النـــــــار فـــــــي فمـــــــــــه

وبعد فترة , وفي مساء صيفي , تعالى الصراخ في إحدى البيوت , وقد سمعنا إطلاق نار , وتبين بأن أحدهم قد سئم الحياة فأطلق نار مسدسه في فمه , فقضى نحبه حالا.

قفـــــــــــز مـــــــن الجســـــــــــر

وكان في المدينة رجل في السبعين من عمره مشهور ببيع الباقلاء , فهو يجيد تحضيرها بطريقته الخاصة التي تجتذب الزبائن إليه , وذات يوم لم يظهر في دكانه , وتساءلت الزبائن , فقالوا إنه إختفى , وبعد أيام شهد أحدهم بأنه قد رآه يقفز من جسر المدينة , وقال بأنه قد غرق في النهر , وفعلا وجدوا جثته في إحدى المدن الصغيرة الواقعة على ضفاف دجلة .

ومن الحالات الأخرى أن فلانا قد وجد مقتولا في آثار المدينة , وآخر أصيب بصعق كهربائي , وما أكثر الغرقى في مياه النهر. وهذه أحرقت نفسها, وتلك رمت بنفسها في النهر, وأخرى إبتلعت حبوبا , وغيرها قفزت من السطح , وهذا شرب نفطا , وذلك شنق نفسه , وآخر شرب مبيدا للآفات الزراعية , ومَن اصطدم بسيارته, وغيرها حالات متنوعة ومتكررة , تتوافد إلى الذاكرة كلما يدور الحديث عن الدين والإنتحار وبأن الدين يوقي من الإنتحار؟!

لا توجد إحصاءات دقيقة في مجتمعاتنا عن الإنتحار, بل أن الدراسات قليلة أو نادرة, وربما ممنوعة بسبب النفي أو النكران أو إعتبارها تعديا على النظام السياسي القائم. وربما لا توجد دراسات عن الإنتحار في المدن الدينية في المجتمع العربي والعالم.

لا يوجد مجتمع بلا دين. فأول ما تم بناءه في التأريخ هو المعابد الدينية ، منذ سومر وما قبلها وحتى الفراعنة وما بعدهم. فالمجتمعات البشرية لا يمكنها أن تتحقق من غير وجود ديني أيا كان نوع الدين.

ودارت الأيام ووجدتني في الطب النفسي ما بين المصادفة والإختيار , وأخذت أعاين الحالات التي تحاول الإنتحار وأتفحص تأريخ الذين إنتحروا , وتكررت الحالات والتفاعلات مع البشر الذي يريد الإجهاز على نفسه , فاخذت أتأمله وأسجل ملاحظاتي وما أكتشفه من دوافع ومبررات لذلك القرار الشديد. وقد توفرت لي فرصة المعاينة والمعالجة والمتابعة للعديد من الحالات في العالم الجديد الذي أمارس إختصاصي فيه.

وذات صباح جاء إلى عيادتي أب مع ولده وهو في الرابعة من العمر لغرض المتابعة والتقييم , وكان الطفل مصطربا ومنفعلا لأن أمه قد غادرت البيت ولا يعرف عنها شيئا , وقد هالني ما رأيت من كدمات حول عنقه , فسألت الأب عنها , فحاول أن يقلل من أهميتها , وقال بأنه كان يلعب مع الأطفال. لكنني سألت الطفل , فأجابني بوضوح " كنت ألعب لعبة الذهاب إلى الجنة" , وماذا تقصد: " إن أمي قالت عندما نموت نذهب إلى الجنة , وقالت بأنها جميلة ورائعة , وأحسن من الحياة" , وماذا كنت تفعل لتذهب إلى الجنة؟ ,
" كنت أريد أن أشنق نفسي , فربطت السلك حول عنقي وربط أخي نهايته في أعلى السرير , فقفزت

لكنه إنقطع" , وهل لا زلت تريد أن تموت " أجل أريد الذهاب إلى الجنة"
إتخذت الإجراءات اللازمة وأدخلته المستشفى رغم معارضة والده وتم الإتصال بالجهات المطلوبة.

ومرة أخرى , جاءت جدة بحفيدها وهو في السابعة من العمر , تطلب إستشارة , لأنه يرسم صور تدل على الموت ويكتب كلمات تشير إليه , ويذكر لمعلمته بأنه يريد أن يموت , فالموت أحلى!
تأملت هذا الطفل الوديع , وتحاورت معه طويلا باحثا عن الدافع الذي يملي عليه التفكير بالموت , وبعد محاولات , قال بأنه يذهب إلى الكنيسة مع جدته كل يوم أحد , ويسمع القس يتحدث عن الموت والجنة , فقرر أن يموت ما دام الموت أفضل من الحياة , وهو جاد في مشروعه للقضاء على نفسه , وعندما سألت الجدة عن صحة ما يقوله , أثبتت ذلك , وأكدت بأنه يذهب معها ويستمع إلى ما ذكره , وقالت بدهشة وتساؤل , كيف له أن يعي ذلك؟
وبعد مداخلات مناسبة , وإمتناع عن التعرض لتلك الخطب والمواعظ , تناسى الطفل فكرة القضاء على نفسه , ومضى في مدرسته , لكنه أثار علامة إستفهام عما سيحصل له في المستقبل.

القصص عديدة ومتنوعة , لكني ذكرت الحالات السالفة لكي أسلط الضوء على العنوان. فقد تعودنا التصديق بأن الدين يحمي من الإنتحار أو يمنعه, وأن نسبته في المجتمعات الدينية أقل من المجتمعات غير الدينية , وفي واقع أمر المجتمعات البشرية , لا يوجد مجتمع بلا دين. فأول ما تم بناءه في التأريخ هو المعابد الدينية , منذ سومر وما قبلها وحتى الفراعنة وما بعدهم. فالمجتمعات البشرية لا يمكنها أن تتحقق من غير وجود ديني أيا كان نوع الدين.
والمجتمعات الغربية تبدو وكأنها مجتمعات دينية في ممارساتها المتنوعة , والشرقية ربما تكون دينية بالقول والإدعاء أكثر من الممارسة الفعلية للدين.

فالقول بأن الدين يقي من الإنتحار يثير بعض علامات الإستفهام؟! إذ يبدو من الملاحظة السريرية , لتقدير درجة خطورة الإقدام على الإنتحار أن هناك علاقة قوية بين الإقدام على الإنتحار وربط السلوك بمعنى ديني, وفي اللحظة التي يجد المُقدم على الإنتحار تسويغا دينيا لسلوكه فأنه يمتلك طاقة تنفيذية عالية وحتمية.
فالإنتحار مشروع سلوكي وموقف يتخذه الشخص تجاه ذاته والحياة , وقد يبدأ في وقت مبكر جدا من حياته , وكلما كان مبكرا أكثر كلما تكون درجة تنفيذه عالية. ودائما يكون مرتبطا بتساؤل لماذا أنا جئت للحياة؟
وفي الوقت الذي يتيقن الشخص بأن موته أفضل من حياته وبأنه سيكون في الحالة الخلابة الآخاذة التي لا يمسه فيها سوء ويتنعم بمباهج وجوده فيها , تتضاءل عنده قيمة الحياة وتنتفي وتتوفر لديه جميع أسباب ودواعي الإنقضاض عليها ومحقها , وربما محق حياة الآخرين من حوله معه.
ويبدو أن من أقوى المسوغات الإنتحارية والتي يشترك فيها معظم المنتحرين , هو إيجاد حالة توافقية ما بين الدين والإنتحار, فيكون الإنتحار سلوكا طقوسيا أو تعبّديا عند المنتحر. ولا يُستثنى دين من ذلك أبدا , ولا يمكن حصر هذا السلوك بدين ما , وإنما هو ظاهرة عامة متصلة بسلوك البشر أينما كانوا وكيفما اعتقدوا.
هذا رأي مبني على التجربة والملاحظة السريرية , وقد يكون مصيبا أو غريبا. وربما يحتاج

فالقول بأن الدين يقي من الإنتحار يثير بعض علامات الإستفهام؟!

فالإنتحار مشروع سلوكي وموقف يتخذه الشخص تجاه ذاته والحياة , وقد يبدأ في وقت مبكر جدا من حياته , وكلما كان مبكرا أكثر كلما تكون درجة تنفيذه عالية

وكما تشير تقارير منظمة الصحة العالمية فأن أكثر من مليون شخص

ينتحرون في العالم كل عام

إلى بحث مستفيض ودقيق , لكن الملاحظة السريرية دائما لها المصداقية في تأريخ الطب ولا تزال مؤثرة وفعالة في تحديد إتجاهات التداخلات العلاجية والوقائية.

فبعد كل هذا الكم الهائل من الأبحاث والدراسات , هناك توجه جاد للعودة إلى الملاحظة السريرية , لأهميتها وقيمتها في تطوير المعرفة الإنسانية والعلمية.

وكما تشير تقارير منظمة الصحة العالمية فأن أكثر من مليون شخص ينتحرون في العالم كل عام , فما هي المبررات والديناميكية التي تدفع بهم إلى تنفيذ هذا القرار؟!

د-صادق السامرائي

2012\8\4

"مراسلات الشبكة" على الفايس بوك

http://www.facebook.com/Arabpsynet

*** ***

ARABPSYNET PRIZE 2012

جائزة البروفيسور مالك بدري لشبكة العلوم النفسية العربية 2012

pdf.2APNprize201/2www.arabpsynet.com/Prize201

*** ***

في الذكرى العاشرة لتأسيسها (2013) تسعى الشبكة لتكريم مجموعة من العلماء بلقب :

" الراسخون في العلوم النفسية"

www.arabpsynet.com/Documents/Doc.TurkyPsyExcellent.pdf

*** ***

صيف 2012

فصل "الإصدارات و المؤلفات و المراجع الطنفسية و العلمنفسية

أضف ملخص إصداراتك/مؤلفاتك الى قاعدة البيانات

http://www.arabpsynet.com/book/booForm.htm

البحث في قاعدة بيانات الاصدارات و المؤلفات بالشبكة

http://www.arabpsynet.com/book/defaultWord.asp